سياسة الدولة الأموية تجاه الموالي والقبائل

د. أمبارك محمد فرج أمبارك

قسم التاريخ كلية الآداب جامعة سرت

المقدمة

يعتبر موضوع سياسة الدولة الأموية تجاه الموالي والقبائل من المواضيع المهمة في تاريخ الدولة الأموية لأنه كان أحد أسباب سقوط الدولة، فقد سادت النزعة العربية بشكل بارز في أوساط الأمويين الذين مالوا للعرب، واستعلوا على الموالي. حيث دخل في الإسلام الكثير من الأعاجم لأسباب دينية أو اجتماعية أو مادية، إلا أنهم لم يحصلوا في الواقع على ما منحهم إياه الإسلام من مساواة سياسية تامة مع العرب، فاستُبعِدوا بشكل عام من تولي الوظائف الكبرى في الدولة، فكان لهم نصيب ضيق في تولي الوظائف العامة خاصة فيما يتعلق بالإدارة المالية نظراً لحاجة الدولة إلى موظفين، وحُرموا من العطاء الذي يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش، وفُرِضت عليهم الجزية على الرغم من إسلامهم..

الثابت أن مصدر هذه التفرقة السياسية، هو الاتجاه الأموي نحو تميز العنصر العربي، وقد أيقظت هذه المعاملة الشاذة روح التذمر بينهم، ونتج عن ذلك ظهور صراع جديد يحمل في طياته خلفية قومية. وشكّل هؤلاء إحدى القوى السياسية الضاغطة التي اسهمت في سقوط دولة الخلافة الأموية، بفعل أنهم ظلوا الفئة التي تعطي أكثر بكثير مما تأخذ ، وتنهض بعبء نشط في الدولة والمجتمع يؤهلها لقطف ثمرات الانتفاع على قدم المساواة مع العرب. لقد ارتكز الحكم الأموي منذ نشأته على العصبية القبلية، وغلب عليه الطابع العربي القومي كما أسلفنا، الذي لازمه حتى زواله.

لقد وظف معاوية بن أبي سفيان في سياسته الداخلية لعبة التحالفات القبلية المتوازنة ببراعة من خلال مصاهرته قبيلة بني كلب، أقوى القبائل اليمنية في الشام، وكان في الوقت نفسه يعيد النزعة العصبية القديمة بصراعاتها التقليدية التي شاعت في العصر الجاهلي. وعقب وفاة يزيد بن معاوية بُعِثت روح العصبية بين القبائل العربية، وما تمخض عن مؤتمر الجابية ونتائجه التي ظهرت في موقعة مرج راهط بانقسام العرب إلى حزبين متنافسين هما: (القيسي واليمني) حيث أخذ الخلفاء يعملون على توسيع مسافة الخلاف بين هذين

الحزبين اللذين كانا عصب دولتهم ومصدر قوتهم، فنراهم ينضمون إلى القيسية حيناً وإلى اليمنية حيناً آخر، فاشتعلت نار العصبية في البلاد التي أدت إلى انهيارها.

أولاً:- التعريف بالولاء:

يبدو أن كلمة "**ولاء**" استعملت في البداية للدلالة على صلة القرابة بين أفراد القبيلة الواحدة، وكذلك يحمل اللفظ من معنى النصرة (هم على ولاية أي مجتمعون في النصرة ... والولاية بمعنى النصرة) (1). وفي الشعر الجاهلي يعني المولى بصفة عامة القريب أي ابن العم أو الحليف وهذا ما يقوله الشاعر علقمة التميمي:

فلا يعدم البانون بيتاً يكنهم — ولا يعدم الميراث مني المواليا(2)

وقال شاعر بني نهشل في قومه:

إذا مولاك كان عليك عوناً — أتاك القوم بالعجب العجيب (3)

وقال اللهبي يخاطب بني أمية:

مهلاً بني عمنا، مهلاً موالينا — امشوا رويداً كما كنتم تكونونا (4)

كذلك وردت الكلمة أيضاً في القرآن الكريم للدلالة على نفس المعنى، يقول تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ (5)

وقال تعالى أيضاً:

﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (6)

وهناك أية أخرى تؤدي نفس المعنى، وبالمجمل فإن مختلف المصادر تؤكد هذا المعنى لكلمة "**ولاء**" للتدليل على صلة القرابة التي تنبثق من الدم. (7) لذلك يلاحَظ أن أشكال التعاون، والنصرة بين الأفراد والجماعات التي فرضتها صلة القرابة أصلاً، عدت من أشكال الولاء. ولاختلاف أشكال التعاون والنصرة يرد في المصادر الاختلاف في تفسير مدلولات كلمة ولاء فالتحالف والجوار والعتاقة والصداقة والمصاهرة كلها عدت من أشكال الولاء. (8)

وقد اتخذت كلمة مولى في الاستعمال التاريخي والشرعي عدة معان حسب العصر والظروف الاجتماعية والسياسية، لكن بصفة عامة يعني المولى الشخص المرتبط بشخص آخر بالولاء، وهو بدوره مولى. غير أن الباحثين في التاريخ الإسلامي حينما يذكرون الموالي يقصدون كل من أسلم من غير العرب، وقد جرى تمييزهم عن الجماعة المسيطرة أي الحاكمة بصفة من الجنس، أو المذهب الديني.

ثانياً:- الدولة الأموية والموالي:

كانت الدولة الأموية ذات صبغة عربية أي تفضل العرب على غيرهم من الموالي المسلمين، مخالفة بذلك ما كان عليه الأمر في عهد الرسول والخلفاء الراشدين من بعده، فالإسلام لا يفرق بين عربي وغير عربي. فلم تخلُ كل الفترات التاريخية فيما بعد – بشهادة المصادر العربية ذاتها – من الدلالات الكاشفة عن مدى احتقار العرب لهذه الفئة من مجتمعهم، كما لم تقتصر نظرة الاحتقار هذه على مجال معين بل شملت عديد المجالات، كما كانت نظرة بعض الخاصة والعامة منهم استنكافاً من استرقاق المسلم، ثم أطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربي، فإذا قالوا "**الموالي**" أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوساً أو ذميين واعتنقوا الإسلام، أو كانوا مما لازم العرب أو التجأوا إليهم، ويسمونهم "**الحمراء**" أرادوا الموالي، والحمراء في القاموس العجم، وهم كل من سوى العرب.

وأصبح الموالي في الإسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية، كان لها شأن عظيم في تاريخ الإسلام، ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية العربية، لقول الرسول "**مولى القوم منهم**" (9) وأهل الرجل عند العرب الموالي والذراري، حيث كان العرب المسلمون لهم ثقة كبرى بمواليهم، يعهدون إليهم بكل شؤونهم، فأكثر حُجّاب الخلفاء الراشدين من مواليهم، فالإسلام لا يفرق بين عربي وغير عربي، وبين أسود وأبيض، ولما دوّن عمر بن الخطاب الدواوين وفرض للناس أعطياتهم على أساس الفضل والسابقة في الإسلام والجهاد وضع الموالي في موضعهم بلا تفرقة فقدمهم على غيرهم من العرب، ففرض لأهل بدر عربهم ومواليهم خمسة آلاف خمسة آلاف، وللأنصار ومواليهم، أربعة آلاف أربعة ألاف. (10) فعم بفريضته كل صريح وحليف ومولى شهد بدراً فلم يفضل أحداً على أحد. كما كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد "**وممن اعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتكم في العطاء**" (11) هكذا شملت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب العادلة كل الفئات الاجتماعية دون استثناء فقد تشابهت سياسته بسياسة الرسول والخليفة أبي بكر الصديق ، وقد

أرضت كل الفئات الاجتماعية تقريبا من عرب وموالي وعبيد، غير أن مقتل الخليفة عمر بن الخطاب كان نهاية فصل مجيد في حياة الموالي نعموا فيه بالمساواة والعدالة، وسلك الخليفة علي سياسة شبيهة بسياسة من سبقوه في التسوية بين العرب والموالي.

ومن خلال العديد من الروايات، يتضح أن البعض من العرب وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون، قد أحبوا مواليهم وأحسنوا معاملتهم وقدروا المتميزين فيهم، كما استفادوا من كفاءاتهم وتجاربهم وخبراتهم بأن أشركوهم في الشؤون السياسية والعسكرية. لكن تمسك الخلفاء ومن ساندهم من العرب بمبدأ التسوية بين العرب والموالي لم يكن سلوك كل العرب ونظرتهم، وإنما كان سلوك أصحاب العقيدة والإيمان القوي، أي أن الطبيعة العربية التي تميل إلى الاعتداد بذاتها وترى لنفسها فضلاً على غيرها قد بدأت في البزوغ مرة ثانية بعد أن كانت الممارسة النبوية والراشدة قد وارتها ولكن إلى حين.

فقيام الدولة الأموية كانت ذات صبغة عربية، أي تفضل العرب على غيرهم من الموالي المسلمين،[12] فقد استبدوا وتعصبوا للعرب، وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها، فظلت خشونة البادية غالبة على دولتهم وظاهرة في سياستهم، فقدموا العرب على الإجمال على سائر الأمم، فكانت الدولة الأموية شديدة الحرص على منزلة العرب، كثيرة العناية في حفظ الأنساب، فجعلت في كل ديوان من دواوينها سجلاً يقيدون فيه من يولد من أبناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة،[13] فبقيت مفاهيم النسب والكفاية راسخة في المجتمع العربي الإسلامي حتى العصور العباسية. فكانت العناية بالأنساب وتدوينها والتأليف فيها فكوّن ذلك فرعاً من التاريخ واشتهر البعض بحفظ الأنساب. ومن ثم تعصب الأمويون للعرب والعربية، فأخذوا ينظرون إلى الموالي نظرة الاحتقار والازدراء، مما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوبية في الإسلام.[14]

وقد ظهر التميز تجاه الموالي على المستوى الاجتماعي من بعض سلوك الأشراف من العرب عندما قال زياد "**إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت وأراها قد قطعت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون؟**"[15] وكذلك عندما قام المختار بن عبيد الله الثقفي يطالب بثأر الحسين بن علي وانظم إليه كثير من الموالي، نظر العرب فوجدوا أن المختار يعطي للموالي نصيباً من الفيء فأغضبهم ذلك، "**ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء أعظم من أن جعل للموالي من الفيء نصيباً، وكانوا يقولون للمختار: عمدت إلى موالينا**

وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر في ذلك والثواب، والشكر فلم ترضَ لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا" [16] وهذا يعني أن أشراف الكوفة كرهوا أن يقاسمهم الموالي ثمرات البلاد المفتوحة وحرموهم من العطاء، حيث سخطوا على المختار وأجمعوا على قتاله وكانوا يقولون **"والله لقد تآمر علينا هذا الرجل بغير رضا منا، ولقد عصتنا عبيدنا فخرب بذلك إيتامنا وأراملنا"** [17]

ومن ضمن مظاهر احتقار العرب الموالي أيضاً أنهم كانوا يستخدمونهم في الحروب كمشاة والعرب على ظهور الخيل، وهم أمامهم حتى لا يهربوا والدليل على ذلك، أن المختار بن عبيد الله الثقفي، الذي تعاطف مع الموالي وساندوه في انتفاضته ضد الأمويين، أوصى قائده إبراهيم بن الأشتر عندما أرسله لمحاربة عبيد الله بن زياد قائلاً "**إن عامة جندك هؤلاء الحمراء، وإن الحروب إن فرسَتهم هربوا، فاحمل العرب على متون الخيل، وأرجل الحمراء أمامهم.**" [18] بل أن بعض المصادر تقول عندما قُتِل المختار واعتُقِل عدد كثير من أصحابه من العرب والموالي استشار مصعب بن الزبير أصحابه في قتلهم، فأشار عليه البعض بقتل الموالي وترك العرب. [19]

ولا شك أن محاولة قتل الموالي والأعاجم وإطلاق سراح العرب السجناء تدل على أن الصفة البارزة لهذا العصر تتجه نحو العصبية العربية، غير أن تلك لم تكن نزعة كل العرب وتعني أصحاب مصعب الذين وقعت مشاورتهم في الأمر، كل هذه الروايات توضح أن المتعصبين للعرب كانوا يأنفون أن يتساووا مع الموالي ويضنون بالدم العربي إذا دارت عليهم الدوائر، ويرون قتل الموالي والعبيد أهون عليهم من قتل العرب، وهذا السلوك أملته عليهم الظروف السياسية خاصة الصراعات على السلطة.

كذلك كان الحجاج بن يوسف والي العراق وهو أحد أركان الدولة الأموية، يمثل أيضاً النزعة الاحتقارية وهذا السلوك المتعصب ضد الموالي، فعندما نزل واسط نفى النبط منه وكتب إلى عامله بالبصرة الحكم بن أيوب " **إذا أتاك كتابي فانفِ من قبلك من النبط فإنهم مفسدة للدين والدنيا"** [20] **حيث أقبل على الموالي وقال: أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم، ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها"** [21] كما انخرط الموالي في خروج عبد الرحمن الأشعث ضد الحجاج بن يوسف وكان سبب ذلك ما شعر به بأن بني أمية لا يهمهم أرواحهم بقدر ما يهمهم ما يجمعونه من مال، خاصةً عندما طلب ابن الأشعث من الحجاج التوقف لمدة عام حتى يعرف جغرافية البلاد، لكن الحجاج بن يوسف رفض ذلك، فعرفوا أنها مؤامرة ضدهم حتى لا

يعودوا إلى العراق خاصة أنهم يشكلون شريحة اجتماعية كبرى من الرأي العام المعارض، وكذلك في عدم المساواة بالعطاء بين أهل الشام وأهل العراق، وبين العرب والموالي، حيث كان عددهم في موقعة دير الجماجم سنة 82 هـ/ 701 م مئة ألف. [22] ويذكر أن الخليفة سليمان بن عبد الملك لما تولى الخلافة أخرج من كان في سجن الحجاج بن يوسف من المظلومين في يوم واحد ثمانين ألفاً، ورد المنقوشين، فرجعوا في صورة أنباط. [23] وكما ذكرنا في عدم المساواة بالعطاء، كانت إحدى السياسات التي مارستها الدولة الأموية ضد الموالي هو حرمانهم من العطاء، فيذكر أن عشرين ألفاً من موالي خرسان كانوا يغزون من غير عطاء إلى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فلما علم بذلك حسن حالهم، حيث ورد عليه وفداً من الجراح بن عبد الله الحكمي في ثلاثة رجال اثنان عرب ومولى، فتكلم العربيان ولم يتكلم المولى فقال له عمر ما أنت من الوفد؟ قال بلى، قال فما يمنعك من الكلام! فقال "**يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج فأميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا فيقول أتيتكم خفياً وأنا اليوم عصبي والله لرجل من قومي أحب إليّ من مئة من غيرهم**" [24] كما عومل البربر بعد إسلامهم معاملة الذين لم يعلنوا إسلامهم، إذ أراد يزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على أفريقيا أن يسيّر في البربر مسيرة الحجاج بن يوسف في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار، [25] فاستبدّ مع البربر، وفرض عليهم الجزية، واستخف بهم، واشتد عليهم في جمع أموالهم، وسبي نسائهم، وأسرف في ذلك حتى أوغر عليه صدورهم، فعقدوا اجتماعاً واتفقوا على قتله فقتلوه، وولوا عليهم محمد بن يزيد مولى الأنصار وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك، "**إنّا لم نخلع يداً من طاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه**" [26] وفي خلافة هشام بن عبد الملك اختار عبيد الله بن الحبحاب والياً على المغرب، وكان عبيد الله قيسياً متعصباً للقيسية، كما كان متعصباً للعرب عامة على البربر، وأساء السيرة عماله وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين وعبيداً لهم، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام، فكان فعله الذميم هذا سبباً لانتفاض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير من القتل في العباد. [27]

كل ذلك أدى إلى أن ينبذ الموالي ولاءهم للدولة وأن يقوموا بحركات سياسية ضد الدولة الأموية أو أن يقوم الموالي بمشايعة مذاهب الخوارج. وليس شرطاً أن يكونوا معتقدين لمذهب الخوارج لكنهم وجدوا في الحركة الخارجية إطاراً منظماً للعمل ضد الدولة الأموية فانخرطوا فيه، وبالتالي يمكن تفسير انتشار المذهب

الخارجي بين البربر لا بسبب الطبيعة البربرية وإنما بسبب ممارسة الدولة الأموية لظلم اجتماعي وسياسي تمييزي ضدهم.

بالإضافة إلى الاضطهاد السياسي والاجتماعي كانت هناك كلمات تطلق عليهم تدل على مدى تحقير العرب للموالي فكانوا يقولون "**لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى**" (28) فقد جعلوا المولى والحمار والكلب سواءً وهذا تشنيع واضح. وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في الموكب وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طريق الخباز لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ولا يدعونهم ليصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب. (29) كما أمر الحجاج أن لا يؤم الكوفة إلا عربي. وكانت العرب إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى، دفعه إليه ليحمله عنه، فلا يمتنع، وإذا لقيه راكباً وأراد أن ينزل فعل، (30) وكانت العرب تتفاخر على الموالي بالفصاحة والبيان وتقبح اللكنة في الكلام، فعبيد الله بن زياد يرتضخ لكنة فارسية لأنه نشأ في الأساورة عند شيرويه الأسواري زوج أمه مرجانه، وصهيب الرومي يرتضخ لكنه رومية ، وازدا نقاذار لكنته نبطية، وقد اجتمعوا على جعل الحاء هاءً (31) كما كانوا يحتقرون المهن اليدوية، وإنما يحترفون السياسة والحرب، بينما يشتغل الموالي والأعاجم والعبيد – على الغالب – بالمهن اليدوية وبقية الأعمال الأخرى.

ومن مظاهر التمييز الاجتماعي الذي مارسه الأمويون، ترفعهم عن مصاهرة الموالي، فقد كانوا يمقتون زواج المولى من العربية، وزواج العربي من غير العربية، ولكن زواج العربي من غير العربية كان أخف بكثير من نظرهم لزواج المولى بالعربية على الرغم من أنه لم يكن في الواقع محجراً. (32) وكان الموالي يتذمرون ويستنكرون صدود العرب و ترفعهم عن تزويجهم فأنشد يقول:

من لقلب صد عن سلمى	على غير مثالِ
صد عنها خشية الناس	ومن قيل وقالِ
رغبت عني لأني	كنتُ مولى لا أبالي

وأنشد مولى لموالي:

ليتها قالت إذا ما	عيروها: لا أُبالي (33)

حيث يُضرب به المثل في القلة والذلة.

ومن مظاهر احتقار العرب للموالي والممارسات ضدهم من الناحية الاجتماعية، أن الخاطب لا يخطب المرأة من أبيها أو أخيها كما هو الشأن عند العرب، وإنما يخطبها إلى مولاها، فإن رضي زوَّج وإلا ردّ. فإن زوّج الأب أو الأخ بغير رأي مولاه فسخ النكاح. (34)

وقد تطور هذا التمييز إلى حد أن أخذ طابعاً قانونياً يقوم ولاة الدولة الأموية بمراقبته ومنعه، فقد زوّج أعراب من بني سليم أحد الموالي بعربية منهم فوشى بهم محمد بن بشير الخارجي إلى الوالي إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة، فغضب لذلك وفرّق بين المولى وزوجته وضرب المولى مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه، وقال محمد بن بشير في ذلك:

وفي المائتين للمولى نكالٌ ... وفي سلب الحواجب والخدودِ
إذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد الموالي من مزيدِ
فأي الحق أنصفُ للموالي ... من اصهار العبيد إلى العبيدِ (35)

لم تكن العرب في عهد الدولة الأموية تترفع عن تزويج الموالي العجم فقط بل حتى مواليهم. فيذكر أن نصيب بن رباح وكان عبداً أسود لبني كعب بن حمرة، كان شاعراً من فحول الشعراء الملمين زمن الدولة الأموية، وكانت له بنات يشبهنه في الأدمة والدمامة، وكان يحبهن جداً، وكان يربأ بهنّ عن العجم، ولا ترغب فيهن العرب، فبقين معنسات، وصرن مثلاً للبنت التي يضن بها أبوها، فلا يرضى من يخطبها، ولا يرغب فيها من يرضاه لها. وقد ضرب بهن المثل أبو تمام في شعره:

أما القوافي فقد حصّنت عذرتها ... فما يُصاب دمٌ منها ولا سلبُ
منعتَ إلا من الأكفاء ناكحها ... وكان منك عليها العطفُ والحدبُ
ولو عضلتَ عن الأكفاء أيِّمها ... ولم يكن لك في أطهارها أربُ
كانت بنات نصيب حين ضن بها ... عن الموالي ولم تحفل بها العربُ (36)

وتؤكد هذه الرواية أن العجم كانوا أقل منزلة من الموالي كما تبرز مدى تأثر الموالي بأسيادهم العرب ومجاراتهم في الأمور. إذ كانوا مثل أسيادهم العرب يحتقرون الأعاجم. وتدل هذه الممارسات من قبل العرب، ربما لمزيد إحكام السيطرة عليهم وعدم الرغبة في إدماجهم، حرصوا على بقائهم مستقلين ولم يسمح لهم بالزواج إلا في ما بينهم وبموافقة أسيادهم لأن اندماج الموالي والأعاجم وزواجهم من العربيات قد يؤدي إلى ذوبان الجنس العربي. لذلك حرص الأمويون بالأساس على بقاء الدولة عربية. وكذلك نتيجة تمسك القبائل

بالأنساب والعناية بها، فلم تكن العرب تزوج بناتها للموالي، فالنظرة القبلية باقية بخصوص تزويج البنت، كما تمسكت الخاصة بمبدأ زواج الكفاءة أكثر من العامة. (37)

ورغم تشدد العرب (الدولة الأموية) من تزويج الموالي من العربيات إلا أنهم كانوا أقل تشدداً من زواج العربي من الأمة فأنتج ذلك أولاداً أطلق عليهم لفظ "**الهجين**". (38)

وتشير إلى نوع من الوضاعة الاجتماعية من الولد الذي جاء من عربية. وقيل "**هجين**" من أجل البياض وكأنهم قصدوا الروم والصقالبة وما أشبههم.

والدليل على أن الهجين أبيض أن العرب تقول: "**ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر أي العربي والأعجمي ويسمون الموالي وسائر العجم الحمراء**". (39) وأما الذي كانت أمه عربية وأبوه أعجمي قيل له "**المدرَّع**".

وقال الفرزدق:

إذا باهلي انجبت حنظليةٌ　　　له ولداً منها فذاك المذرَّعُ

وقال ابن الزبير عبد الرحمن بن أم الحكم:

تبلغت لما أن أتيت بلادهم　　　وفي أرضنا أنت الهمام القلمسُ

ألست ببغل أمه عربيةٌ　　　أبوه حمارٌ أدبر الظهر ينخسُ

وشبه المدرع بالبغل، إذا قيل له من أبوك قال أمي الفرس. (40)

فاحتقار الهجناء ظاهرة قديمة عرفتها عديد الشعوب، وقد كان بني أمية لا يستخلفون بني الإماء، لما كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أم ولد.

فيُروى أن الخليفة عبد الملك بن مروان سابق بين بنيه سليمان ومسلمة فسبق سليمان مسلمة، فقال عبد الملك:

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم　　　على خيلكم يوم الرهان فتدركُ

وما يستوي المرآن هذا ابن حرة　　　وهذا ابن أخرى ظهرها مشترّكُ

وتضعف عضداه ويقصر سوطه　　　وتقصر رجلاه فلا يتحركُ

وأدركنه خالاته فنزعنه　　　ألا إن عرق السوء لا بد يدركُ (41)

ولم تكن هذه النظرة الاحتقارية التمييزية حكراً على الطبقة الخاصة وبالأساس رجال السلطة والسياسة بل كانت سائدة أيضاً في أوساط العامة، فيذكر أن أعرابياً ذهب إلى سوّار القاضي فقال له: "**إن أبي مات وتركني وأخاً لي، وخط خطين ناحيةً، ثم قال: وهجيناً لنا، ثم خط خطاً آخر ناحيةً، ثم قال: كيف ينقسم المال بيننا؟ فقال: المال بينكم أثلاثاً إن لم يكن وارثٌ غيركم، فقال له: لا أحسبك فهمت، إنه تركني وأخي وهجيناً لنا؛ فقال سوّار: المال بينكم سواء؛ فقال الأعرابي أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخي؟ قال أجل! فغضب الأعرابي وقال: تعلم والله أنك قليل الخالات بالدهناء؛ فقال سوّار: إذاً لا يضرني ذلك عند الله شيئاً**" (42)

تُبرِز هذه الرواية أن النظرة العربية الجاهلية للهجناء لم تُمحَ تماماً من أذهان العرب وخاصة الأعراب منهم.

نستنتج مما ذكرنا سابقاً عدة حقائق وهي، أن التمييز العربي نتيجة عودة العصبية العربية ضد غيرهم من المسلمين سواءً أكانوا من خراسان، أم البربر لم يكن هذا سلوكاً أموياً فقط بل كان مزاجاً عربياً عاماً. وقد ترك هذا التمييز آثاره على المستوى الاجتماعي والسياسي فامتنع العرب من تزويج بناتهم من الموالي كما امتنعوا عن مساواة الموالي بالعرب في العطاء على مستوى الممارسة السياسية للدولة بل وصل الأمر إلى حد معاملتهم كالكفار واعتبارهم فيئاً للعرب بفرض الخراج والجزية على المسلمين منهم، وهذا يعني أن الدولة الأموية ومن خلال مؤسساتها السياسية قد تحيزت للجنس العربي ضد الموالي، مما أفقدها شرعيتها. لكنها حولت الدولة من دولة إسلامية "**للمسلمين جميعاً**" إلى دولة عربية للعرب فقط. (43)

وهذا أدى إلى نبذ الموالي ولاءهم للدولة الأموية، وأن ينضموا إلى حركات سياسية ضدها، كما أوضحنا. تسبب في استنفاد جزء كبير من طاقتها وحال بينها وبين الاستمرار في عملية الفتوحات الخارجية.

فالحق أن الحكم الأموي لم يكن حكماً إسلامياً، يسوّى فيه بين الناس، ويكافأ منه من أحسن عربياً كان أو مولى، ويعاقب فيه من أجرم عربياً كان أو مولى، ولم يكن الحكام فيه خدمة للرعية على حساب غيرهم.

فقد كانت تسود العرب فيه النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية فكان الحق و الباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل. فالعمل حق إذا صدر من عربي من قبيلة! وهو باطل إذا صدر عن مولى أو عربي من قبيلة أخرى! ولكن هذا الوصف القاسي الذي وصفناه ليس نظراً عاماً كان عند العرب جميعهم.

إنما كان هو النظر السائد بين البدو والولاة. أما نظر المساواة فقد كان سائداً في الأوساط العلمية والدينية. فالعالم يشرُف بعلمه سواءً أكان عربياً أم مولى، ومن سادة التابعين من كانوا موالي، والناس منحوهم من الإجلال ما منحوا العرب، لا تفاضل بينهم إلا بالدين، والعلم. (44)

واستطاعوا أن يحفظوا للأمة الإسلامية تراثها الفقهي والأدبي وكل فروع العلم. ففي المدينة المنورة على سبيل المثال كان سادة العلماء فيها سليمان بن يسار مولى ميمونة بنت الحارث – ت 103 هـ/721 م، ونافع مولى عمر من كبار التابعين وكان ديلمياً، وربيعة الرأي وهو شيخ الإمام مالك. وفي مكة المكرمة كان مجاهد بن جبر مولى قيس المخزومي – ت 102 هـ/720 م، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح. وفي البصرة كان الحسن البصري: وأبوه مولى زيد بن ثابت، وقال عمرو بن العلاء ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج، وفي الشام كان مكحول – 118 هـ/ 736 م. وفي مصر كان يزيد بن حبيب (بربري) وهو شيخ الليث بن سعد حتى قيل أنه أول من أظهر العلم بمصر. (45)

ويرجع اهتمام الموالي بالعلم إلى طبيعتهم وهي الاستقرار أي السكن في الحضر. (46) والذي ذكرناه ربما يظن الظانّ لأول وهلة أن بينها تضارباً، والحق أنْ لا تضارب، وأن الأوساط السياسية، وأوساط أشراف القبائل، وأوساط البدو كانت تحقر الموالي، وأن الأوساط الدينية والعلمية ما كانت تتعصب لجنس ولا دم، وإنما كانت تتعصب للدين والعلم و تقومها حيث كانا. (47)

ثالثاً:- الدولة الأموية والعصبية القبلية

كانت العصبية العربية في الجاهلية بين القبائل بحسب الأنساب، فلما جاء الإسلام تناسوا العصبية، واجتمع العرب كافة باسم الإسلام، فكان الإسلام يجمع العرب جميعاً على اختلاف قبائلهم وبطونهم طوال أيام الخلفاء الراشدين. ولكن عندما تولى الأمويون الخلافة، استبدوا وتعصبوا للعرب، وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها، فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم، فحافظوا على تعصبهم لقبيلتهم "**قريش**" وإيثار أهلهم على سواهم ومن ثم أيضاً للقيسية ضد اليمنية، وأدى هذا الأمر إلى الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية، وضاع ثقلها في الإسلام، وخصوصاً أهل البصرة والكوفة والشام، فعادت العصبية إلى نحو ما كانت عليه في الجاهلية. فبدأت هذه العصبية بتعصب العرب كافة على قريش، حسداً لهم، ولاستبدادهم بالسُلطة دون سائر الصحابة أو التابعين مع استئثارهم بالفيء، إلا الذين تألفهم معاوية بن أبي سفيان مع القبائل اليمنية. (48)

فقد اعتمد الخليفة معاوية ابن أبي سفيان على مواهبه السياسية، حيث كان على درجة عالية من الذكاء والمرونة، فاضطرته الظروف السياسية التي أحاطت بدولته الناشئة، للعمل على صعيدين: صعيد التحالف مع السكان الأصليين في بلاد الشام لاسيما المسيحيين منهم، وصعيد التحالف مع أقوى القبائل العربية كما أسلفنا وهي القبائل اليمنية، التي ساندته في الوصول إلى الحكم، وقد شكلت ركيزة حكمه. وثبّت هذا التحالف زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبية، وزواج ولده يزيد بامرأة منهم، ويوضح لنا هذا التحالف الخط السياسي الذي اعتمده في علاقاته العامة. وقد اعتبروا بني كلب وهم أخوال ابنه يزيد الحماة الطبيعيين للبيت الحاكم، لكن معاوية القيسي، وهو السياسي البارع، لم تكن تعنيه عصبية ما إلا بقدر ما تخدم مصالحه، وقد هدف أن يجعل العنصر العربي دعامة أساسية لطموحه الشخصي، وطموح الطبقة الأموية الحاكمة. (49)

ومن المؤكد أن هذه المنهجية السياسية أدت من خلال مسارها التنظيمي إلى شكل مختلف، تطورت معه من الخلافة، حسب مفهوم جمهور المسلمين لها إلى الملكية. لكن من الثابت أن معاوية – وإن طلب الملك – قد حرص على أن يبقى شيخ العرب أكثر من ملكهم، وأن الصفة العامة للدولة بقيت دينية بحكم أن دستورها الإسلام الذي هو دين الدولة. فقد تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن، وظلت كلب على نصرة ابنه يزيد بعده. وبعد وفاة يزيد بن معاوية كانت هناك بيعتان، إحداهما في الشام لمعاوية بن يزيد، والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير، فتقلصت سيطرة الخلافة الأموية إلى الشام فقط، ولكن ظل الحزب الأموي متماسكاً قوياً، فقد حكم معاوية بن يزيد أربعين يوماً ثم مات إلا أنه لم يستخلف أحداً. (50)
فوجدت الخلافة الأموية نفسها بعد وفاته في موقف صعب بعد أن عمت الفوضى أرجاء العالم الإسلامي.
ففي العراق، اشتعلت نار العصبية القبلية بعد فرار عبيد الله بن زياد من البصرة تحت ضغط الأحداث السياسية، وأدى ذلك إلى سيطرة العنف فقد كانت كل قبيلة تحمي مصالحها. وللتخلص من هذا المأزق بعثت كل من الكوفة والبصرة بالوفود إلى مكة لإعلان البيعة لابن الزبير، فأرسل عمالهُ لهما. أما في الحجاز فكانت بيعة ابن الزبير، كما وصلته وفود من قنسرين وحمص ومصر تبايعه، ودخل أهل فلسطين في طاعته. (51) وانقسم الشام بين مؤيد لابن الزبير وبين مدافع عن مكتسبات الخلافة الأموية، فرفض حسان بن مالك أن يبايعه وأراد الخلافة لخالد بن يزيد بن معاوية، حتى أن مروان ابن الحكم - عندما نظر في إطباق الناس على مبايعة ابن الزبير وإجابتهم له - أراد أن يلحق به، إلا أن عبيد الله بن زياد منعه من ذلك. (52) في ظل هذا الانقسام اجتمع بنو أمية في دمشق لإنقاذ خلافتهم المهددة بالسقوط، وكانوا أسرى القوى القبلية

المتنافسة والمتصارعة سياسياً وعسكرياً التي تعاظم نفوذها مع انهيار الحكم المركزي وتفرق الأسرة الحاكمة. فالحزب اليمني بقيادة قبيلة كلب النافذة في البلاط الأموي، وهي عصب الدولة وقوتها بزعامة حسان بن مالك، كان متشدداً في الحفاظ على امتيازاته، فقد تمسك بالأمويين، وخشي مناصروه من انتقال الخلافة إلى الحجازيين بعد أن ظلت في الشام منذ أن نقلها معاوية بن أبي سفيان إليها. [53]

أما الحزب القيسي الذي استاء من محاربة يزيد لأهل المدينة، وقد وصل مع زعيمه الضحاك بن قيس الفهري إلى مكانة كادت تنافس الحزب اليمني، فقد أمضى تاريخه كله في الشام وفي خدمة معاوية ابن أبي سفيان وابنه يزيد، والذي كان يشرف – آنذاك – على شؤون دمشق منذ وفاة معاوية الثاني، فقد مُنِحَ مركزاً متقدماً من خلال منصبه كأمير لبلاد الشام، حيث أُتيح له أن يمـلأ الفراغ بصورة غير رسمية. [54] فنتيجة تضعضع القوة الأموية، أعلن الضحاك بن قيس ولاءه لابن الزبير الذي أصبح ممثلاً له في بلاد الشام. [55] وبعد محاولات لرأب الصدع بين القيسية واليمنية اتفق الطرفان على الالتقاء في الجابية سنة 64 هـ/ 684 م، للتشاور والاتفاق، فسار الكلبيون والأمويون إلى هناك، على حين غلب بعض أنصار ابن الزبير الضحاك بن قيس على رأيه، فأطاعهم ومال نحو مرج راهط. [56] وتفرقت كلمة الأمويين وتنافسوا على منصب الخلافة، فتوزعت ولاءاتهم بين ثلاثة مرشحين وهم مروان بن الحكم، وخالد ابن يزيد بن معاوية، وعمرو بن سعيد بن العاص. وأخيراً اتفقت عدول بني أمية على تولي مروان بن الحكم الخلافة لكبر سنه وحكمته وتجربته، على أن يكون خالد بن يزيد بن معاوية ولياً للعهد، على أن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد بن العاص. [57] وبذلك نجح التحالف الأموي- اليمني في إعادة توحيد الموقف السياسي من مشكلة الحكم. غير أن الأمر لم يكن سهلاً بعد، حيث ما زالت تعترضه صعوبات وهي عقبة القيسيين، فقد استاء الضحاك بن قيس زعيم القيسية المناصر لابن الزبير، فانظم إليه النعمان ابن بشير الأنصاري والي حمص، وزفر بن الحارث أمير قنسرين، وأهل فلسطين، وكان واضحاً أنهم يستعدون للحرب فكان على مروان بن الحكم أن يثبت أنه أهل لحمل عبء المسؤولية والدفاع عن الخلافة، فاجتمع إليه أنصاره من كلب، وغسان، والسكون، والسكاسك، وخرج إلى مرج راهط لمواجه جموع القيسيين، وتقاتل عشرين ليلة فقُتل من قيس مقتلة لم يُقتل مثلها في موطن قط. [58] وكانت بمكيدة من مروان بن الحكم، [59] وقد قُتِلَ الضحاك بن قيس وعدد كبير من الأشراف من القيسيين في الشام يُقدَّرون بثمانين من أشراف مضر، وهرب زفر بن الحارث بعد المعركة إلى قرقيسياء وغلب

عليها وتحصن بها، فلما جاءته خيل مروان هرب إلى العراق، كما فر النعمان بن بشير إلى حمص فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه، وفر نائل بن قيس من فلسطين واستتب الأمر لمروان في الشام وفلسطين. [60]

لقد أذكت هذه الموقعة نار العصبية من جديد، ليس في الشام وحدها، بل في سائر ولايات الدولة، خاصةً في خراسان وظهر العداء بين اليمنية والمضرية في صورة نزاع متصل بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وامتد لهيب العصبية إلى أقاصي البلاد التي وصلت إليها الفتوح العربية فيما شنه هؤلاء وأولئك من حرب أهلية ومعارك دموية. [61]

والواقع أن هزيمة مرج راهط لم تكن مجرد خسارة عسكرية للحزب القيسي بل كانت نقطة تحول في حياته السياسية، وظلت في ضميره مفعمة بالحقد والكراهية، كما خسر هذا الحزب بعض امتيازاته التي تمتع بها مناصروه أثناء زعامة الضحاك بن قيس. فلما حدثت ثورة المختار بن أبي عبيد واجه قائده إبراهيم بن الأشتر قوة أموية بقيادة عبيد الله بن زياد، قد اصطبغت بصبغة الصراع الشيعي الأموي، إلا أنه تخللتها مواقف ذات صراع قيسي يمني، وذلك حين تراجع عمير بن الحباب السلمي وهو من قيس عيلان، وكان على ميسرة جيش الشام، ونكس لواءه ونادى "**يا لثارات قيس، يا لمضر، يا لنزار**" وانتهت المعركة بانتصار واضح لقوات إبراهيم الأشتر، وقُتل عبيد الله بن زياد في معركة الخازر مع عدد كثير من جند الشام. [62] وبدلاً من أن يعمل خلفاء بني أمية على حسم هذا النزاع ووضع حدٍّ له، إذا بهم ينحازون إلى فريق دون آخر، مما ساعد على اتساع الهوة بين العصبتين، وكان من نتيجة ذلك أنْ عانت الدولة الأموية كثيراً من هذا النزاع، وفقدت الكثير من طاقاتها، واستغل الدعاة العباسيون هذه الثغرة لينفذوا منها إلى قلب الدولة الأموية، للعمل على القضاء عليها.

وتُعتبر خلافة عمر بن عبد العزيز فترة انتقال بين حالة القوة والضعف الذي اعترى التحالف الأموي اليمني، فقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز رجلاً صالحاً قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من الخلفاء، فلم ينحَازْ إلى جانب أحد، بل حاول التوفيق بين العصبيتين، فلم يولِّ والياً إلا لكفاءته ومقدرته دون الأخذ بعين الاعتبار لانتمائه القبلي، فساد عهده الهدوء. [63] فلما توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز خلفه يزيد بن عبد الملك، فاستقبل بخلافته فتنة كان لها أسوأ الأثر في حزب بني أمية، وهي فتنة آل المهلب. وكانت هذه الفتنة في الواقع نزاعاً بين عرب الشمال وعرب الجنوب، أو بين مضر واليمن. [64] وبما أن

الخليفة يزيد من عرب الشمال لم يتورع عن خوض غمار تلك الفتنة، فولّى أخاه مسلمة بلاد الشرق وأوكل إليه محاربة اليمنية بقيادة يزيد بن المهلب الذي خرج عن سلطـة يزيـد بن عبد الملك، فكانت هذه الفتنة سبباً في القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبي صفرة، فقد قُتل بعضهم في الحرب، وحُمل بعضهم أسرى إلى يزيد بن عبد الملك، فأمر بقتلهم جميعاً [65] وكان طبيعياً بعد هذه الحادثة أن يأخذ يزيد بن عبد الملك جانب القيسيين، فولى بعد أخيه مسلمة، عمر بن هبيرة وهو قيسيّ، واصطبغت الدولة كلها بالصبغة القيسية المضرية، وأصبح العنصر اليمني ضعيفاً لا يملك من الأمر شيئاً، ولما توفي يزيد بن عبد الملك خلفه أخوه هشام بن عبد الملك، فكان متقلباً في سياسته اتجاه القبائل، وفقاً للظروف السياسية التي عاشها، وحاول في إحدى مراحل الصراع أن يعيد التوازن بين العصبيتين فرأى أن القيسية قد علت كلمتها وخاف ازدياد نفوذها على الدولة، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين، فولى خالد بن عبد الله القسري على العراق، وولى أخاه أسداً على خراسان، وبذلك أخذ العنصر اليمني يستعيد قوته وأخذ العنصر القيسي في الضعف، وتعصب خالد بن عبد الله القسري وأخوه لليمنية، فأخذوا ينتقمون من المضريين، ولكن سرعان ما انقلب عليهم هشام بن عبد الملك، وانحاز إلى جانب القيسيين (المضرية) وولى العمال منهم، فولى يوسف بن عمر الثقفي على العراق، ونصر بن سيار على خراسان بعد أن عزل خالد بن عبد الله القسري وأخاه أسد من العراق وخراسان، [66] وكذلك فعل في بلاد المغرب والأندلس، وذلك لتعدي ولاة اليمنية على أهل مضر من العرب.

وكان مقتل خالد بن عبد الله القسري زعيم اليمنية من أقوى الأسباب التي عجلت بسقوط حزب بني أمية، فإن اليمنية الذين لم ينسوا للدولة قضاءها على آل المهلب، فوجئوا بقتل زعيمهم خالـد بن عبد الله، لاتهامه بأسباب واهية، فعمل اليمنية على التخلص من سيادة الأمويين. [67] حيث مالوا لدعوة زيد بن علي بن الحسين وابنه يحيى، وامتناعهم على الوليد بن يزيد. فقد لزم الوليد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة جانب المضريين لأن أمه كانت منهم وأقصى العنصر اليمني عن دوائر الدولة ونكل بهم، وقتل خالد بن عبد الله القسري زعيم اليمنية كما ذكرنا سابقاً، فأثار ذلك السخط والغضب في نفوس اليمنية عليه، فأخذوا يدبرون المكايد لقتله، فقد أدى هذا الحادث إلى توحيد القبائل اليمنية لأول مرة في العراق والشام، وكان أشد القبائل اليمنية نقمةً بنو كلب في بلاد الشام، كما سخط عليه عامة الناس، فانتهزوا فرصة سخط الناس

عليه، وأشعلوا نار الثورة ضده، وانظم إليهم يزيد بن الوليد بن عبد المالك الذي كان يظهر النسك والتواضع، وقتلوه في جمادى الآخرة سنة 126 هـ/ 744 م وبايعوا يزيد. (68)

لم يضع قتل الوليد بن يزيد حداً للنزاع الذي قام بين أفراد البيت الأموي، بل ساعد على تفاقم الوضع، وظهر ذلك في استمرار الانقسام بين الحزبين الكبيرين (**القيسي واليمني**)، فانظم يزيد بن الوليد سنة 126 هـ/ 744 م إلى اليمنية، وتتبع أهل القيسية (**المضرية**) وعمالهم مما أدى إلى حدوث انقسام بين المضرية واليمانية في خراسان، وفي الشام أيضاً وهي قاعدة الدولة الأموية.

وذلك لأن مروان بن محمد آخر خليفة أموي دعا للوليد بن يزيد وهؤلاء قاعدتهم القيسية، لكن اليمانية رأت أنها سيفتك بها إن هي أسلمت للمضرية فانتفض أهل حمص، وانظم إليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية وآخرون من أفراد البيت الأموي، كما ثاروا في فلسطين بقيادة يزيد بن سليمان بن عبد الملك، وحذا أهل الأردن حذوهم بزعامة محمد بن عبد الملك. (69) غير أن يزيد بن الوليد استطاع بمساعدة اليمنيين أن يتغلب عليهم جميعاً، فأخضعهم وزج بزعمائهم من أهل بيته في السجون، ولكنه لم يستمر طويلاً فتولى من بعده أخيه إبراهيم بن الوليد، وفي عهده فقدت الدولة الأموية هيبتها في نفوس المسلمين، وتحرك مروان بن محمد بن مروان ليحسم الأمر لصالحه بمساعدة القيسية، وفي عهده استفحلت النزاعات العصبية، وشملت جميع أنحاء الدولة حتى تصدع البيت الأموي، وأشرف الأمويون على الزوال، وأدرك بعض أبناء الأسرة الأموية خطورة الوضع، فحاولوا إيقاف التدهور، أو الحد من خطورته، إلا أنهم فشلوا في ذلك، مما دفع العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى التعبير عن إدراكه العميق لحجم الكارثة، حيث قال: "**يا بني مروان؛ إني أظن الله قد أذن في هلاككم**" (70) وقضى مروان بن محمد جانباً من خلافته في إخضاع بعض أفراد الأسرة الأموية الذين خرجوا عليه بمساعدة اليمنيين، فشهدت بلاد الشام والعراق وخراسان حركات سياسية، وأصبحت مسرحاً للفتن والاضطرابات، وشغل مروان بن محمد بإخمادها، فلم يلتفت إلى ما كان يجري في خراسان من بث الدعوة العباسية التي اشتد أمرها وعظم خطرها.

ولم يلبث أن باغتته الرايات السود من خراسان، وطاردته، وقضت على جيشه، ففر إلى مصر حيث أدركه عبد الله بن علي العباس ثم أخوه صالح بن علي الذي قتله سنة (132 هـ/749 م) ويعتبر القضاء على بني أمية قضاءً على نفوذ العرب الذين كان الأمويون يعتمدون عليهم دون سواهم. (71)

وهكذا يتضح أن ما قامت عليه الدولة الأموية من عصبية أدت إلى نهايتها فتمزقت قاعدتها الاجتماعية التي يقوم عليها بناؤها السياسي، كما قادت إلى تفتيت البيت الأموي نفسه ثم انهيار الدولة.

الخاتمة

نستخلص من موضع سياسة الدولة الأموية اتجاه الموالي والقبائل، أن سلوك الدولة الأموية في تعصبها للجنس العربي في مواجهة الموالي لم يكن شكلاً صحيحاً من أشكال مواجهة الدولة العربية لتحول الكثيرين إلى الإسلام، لأن العصبية ضد الموالي أضرت بالدولة في كثير من الوجوه، فمنها أن السلوك العصبي للدولة ضد فئة معينة من مواطنيها يفتح الباب لجعل السلوك العنصري يمتد ليشمل فئات أخرى بحيث يصبح مبدأً أخلاقياً يتفشى في كل مناحي الحياة. وكذلك فقدت الدولة الأموية ولاء الموالي الذين لم يكونوا ضدها قبل ذلك، وإنما أصبحوا ضدها لإصرارها على ممارسة التمييز السياسي ضدهم (**وحالة البربر نموذج واضح لذلك**) وكأن ذلك لم يحدث مما أدى إلى سخط الموالي بالخروج ضمن الحركات السياسية المعارضة.

إن عصبية الدولة ضد أحد فروع الجنس العربي وهم القيسية قد أدى إلى مزيد من عصبية الدولة وتضييق قاعدة تأييدها الاجتماعي والسياسي. وقد أدى إلى مزيد من عدم الاستقرار السياسي إذ قامت حروب كبيرة بين القيسية واليمانية على مدى تاريخ الدولة الأموية مما أطمع القوى الخارجية في الدولة كما أطمع القوى الداخلية المناوئة للدولة وخاصة الخوارج. وهذا التنافس بين الحزبين أدى في النهاية إلى تفكك العصبية التي كان يستند عليها الخليفة وضعفها ما أدى إلى انهيارها وانهيار الدولة الأموية.

ولا تزال قصة الدولة الأموية تملك دلالتها المعاصرة، فحين تكون الدولة حكراً على فئة من مجتمعها فإنها تضع أسس عدم استقرارها السياسي وتهديد هويتها الفكرية وانقسام قاعدتها الاجتماعية والسياسية ثم زوالها السريع.

المصادر

(1) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت – لبنان، 1997 م، ج6، ص 491 ، 492.

(2) ابن قتيبة ، أبي محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، ط1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت – لبنان، 1997 م، ص 141.

(3) المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، ط2، دار الكتاب العلمية، بيروت – لبنان، 1989، ج1، ص49.

(4) ابن منظور، المصدر السابق، ج6، ص491.

(5) القرآن الكريم، سورة النساء، آية رقم 33.

(6) القرآن الكريم، سورة هود، آية رقم 113.

(7) ابن منظور، المصدر السابق، ج6، ص491، ص492.

– ابن قتيبة الدينوري، المصدر السابق، ص114، ص141.

(8) لقد وردت كلمة "**ولاء**" في القرآن الكريم في أماكن عديدة لتعطي مفهوم النصرة والمساعدة والعون، انظر سورة الأحزاب، آية 17 – سورة النساء، آية 45، 123 – سورة التوبة، آية 116 – سورة النحل آية 63، سورة البقرة آية 107.

(9) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، د. ط، دار مكتب الحياة، بيروت لبنان، 1967، ج2، ص329.

(10) بن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، 1996 م. ج3، ص158.

(11) ابن سلام، عبيد القاسم، الأموال، ط1، دار الحداثة، بيروت – لبنان، 1988، ص241.

(12) حبيب، كمال السعيد، الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية، د.ط، مكتبة مدبولي، القاهرة – مصر، 2002، ج1، ص145.

(13) المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد، المواعظ والاعتبار، ط2، مكتبة الثقافة الدينية، د.ن، 1987، ج1، ص94.

(14) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ط15، دار الجيل ومكتبة النهضة المصرية، بيروت، القاهرة، 2001، ج1، ص278

(15) ابن عبد ربه، شهاب الدين أحد، العقد الفريد، ط2، دار مكتبة الهلال، بيروت – لبنان، 1990، ج3، ص130، ص131.

(16) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، د. ط، دار سويدان، بيروت – لبنان، د. ت، ج6، ص43، 44.

(17) الطبري، المصدر نفسه، ج6، ص43.

(18) المبرد، المصدر السابق، ج1، ص375.

– أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط10، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، د.ت، ج1، ص23.

(19) الطبري، المصدر السابق، ج6، ص115، ص116.

(20) الأصفهاني، أبو القاسم حسن بن محمد الراغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، د. ط، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، 1961، ج1، ص350.

(21) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ج3، ص132، ص133.

– المبرد، المصدر السابق، ج1، ص 404.

(22) الطبري، المصدر السابق، ج6، ص347.

(23) المبرد، المصدر السابق، ج1، ص404.

(24) ابن الأثير، أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، د. ط، دار صادر، بيروت – لبنان، 1982م، ج5، ص50، ص51.

(25) الطبري، المصدر السابق، ح4، ص182.

(26) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن، فتوح مصر وأخبارها، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991م، ص214.

(27) ابن عذاري، أبو عبد الله بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط3، دار الثقافة، بيروت – لبنان، 1983 م، ج1، ص52.

(28) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ج3، ص130.

(29) ابن عبد ربه، المصدر نفسه، ج3، ص 130.
(30) أمين، أحمد، المرجع السابق، ج1، ص24، ص25.
(31) الجاحظ، عثمان بن عمر بن بحر، البيان والتبيين، د. ط، دار صعب، بيروت – لبنان، د. ت، ج1، ص53.
(32) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ج6، ص99، ص101.
- العلي، صالح أحمد، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ط2، د.ت. بيروت – لبنان، 1969م، ص96، ص97.
(33) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 2005م، ج2، ص332.
(34) ابن عبد اربه، المصدر السابق، ح3، ص130.
(35) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، كتاب الأغاني، د.ط، مؤسسة جمال للطباعة والنسر، دار إحياء التراث العربي، د.ك، د.ت، ج16، ص107،
(36) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، المصدر السابق، ج1، ص211.
- ابن قتيبة، المصدر السابق، ص293.
(37) السلامي، شافية حداد، نظرة العرب إلى الشعوب المغلوبة، ط1، الانتشار العربي، صفاقس – تونس، 2009م، ص189، ص193.
(38) أحمد أمين، المرجع السابق، ج1، ص25.

ملاحظة: نقصد بالعرب: (الخلفاء والأمراء والقادة والموظفين وعامة العرب في الدولة الأموية).

(39) المبرد، المصدر السابق، ج1، ص375.
(40) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ج6، ص100.
(41) ابن عبد ربه، نفس المصدر، ج6، ص101.
(42) ابن قتيبة الدينوري، أبي محمد عبد الله مسلم، عيون الأخبار، د. ط، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د. ت، ج2، ص72.
(43) حبيب، كمال السعيد، المرجع السابق، ص149، ص150.
(44) أمين، أحمد، المرجع السابق، ج1، ص27.
(45) حبيب، كمال السعيد، المرجع السابق، ص153.
- ابن سعد، المصدر السابق، ج5، ص141، ص219، ص319، ص320.
- أمين، أحمد، المرجع السابق، ح1، ص27.
(46) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، د.ط، دار مكتب الهلال، بيروت – لبنان، 1991م، ص337، 338.
(47) أمين، أحمد، المرجع السابق، ج1، ص28.
(48) زيدان، جرجي، المرجع السابق، ج2، ص336، ص337.
(49) طقوش، محمد سهيل، تاريخ الدولة الأموية، ط4، دار النقاش، بيروت – لبنان، 2005م، ص17.
(50) الطبري، المصدر السابق، ج5، ص72.
- المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط5، دار الأندلس، بيروت _ لبنان، 1983م، ج3، ص72.
- ابن الطقطقا، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية، د. ط، دار صادر، بيروت – لبنان، د.ت، ص118.
(51) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، د. ط، دار صادر، بيروت – لبنان، د. ت، ص255.
(52) المسعودي، المصدر السابق، ج3، ص38، ص85.
- الطبري، المصدر السابق، ج5، ص530.
(53) الطبري، المصدر نفسه، ج5، ص532، ص533، ص534.

(54) بيضون، إبراهيم، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهدري، د.ط، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، 1979م، ص198.
(55) المسعودي، المصدر السابق، ج3، ص87.
– الطبري، المصدر السابق، ج5، ص 532، ص534، ص535.
(56) الطبري، المصدر نفسه، ج5، ص534.
(57) ابن الأثير، أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، د.ط، دار صادر، بيروت – لبنان، 1979م، ج4، ص147، ص148.
– ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، د. ط، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د.ت، ج2، ص13.
(58) ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص149، ص150.
(59) ابن خياط، خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، د.ط، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1993م ص199.
(60) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ط1، دار الفكر، بيروت – لبنان، 2002م،ح1، ص447.
– ابن قتيبة، أبي محمد عبدالله بن مسلم، الإمامة والسياسة، د. ط، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د.ت، ح2، ص13.
– الطبري، المصدر السابق، ج5، ص535 – ص541.
– ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم، المعارف، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2002م، ص199.
(61) حسن، حسن إبراهيم، المرجع السابق، ج1، ص237.
(62) المسعودي، المصدر السابق، ج3، ص 97.
– الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2001م، ص433.
(63) المسعودي، المصدر السابق، ج3، ص183.، ص184.
– البغدادي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، د. ط، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2001م، ص76، ص77.
– ابن عبد ربه، المصدر السابق، ح4، ص202 – ص206.
(64) حسن، حسن إبراهيم، المرجع السابق، ج1، ص275.
– طلس، محمد أسعد، تاريخ العرب، د.ط، دار الأندلس، بيروت – لبنان، د.ت، ج1، ص180.
(65) المسعودي، المصدر السابق، ج3، ص199، ص200.
(66) الطبري، المصدر السابق، ج7، ص26، ص37، ص47.
(67) حسن، حسن إبراهيم، المرجع السابق، ج1، ص276.
(68) حسن، حسن إبراهيم، المرجع نفسه، ج1، ص276.
– طقوش، محمد سهيل، المرجع السابق، ص194.
(69) ابن الأثير، المصدر السابق، ج5، ص292، ص293، ص294، ص295.
(70) الطبري، المصدر السابق، ج7، ص239.
(71) حسن، حسن إبراهيم، المرجع السابق، ج1، ص277، ص278.